

ويقترَب المفهوم الأول من النموذج الآلي، ويقترَب النموذج الثاني من النموذج العضوي. ويمكن القول بأن الحضارة الغربية تتأرجح بين هذين النموذجين الإدراكيين، أو الصورتين المجازيتين. وإن كان هذا التأرجح قد مُحي تماماً لصالح الصورة المجازية العضوية.

ويعود النموذج الآلي إلى الفكر اليوناني القديم، ولكنه اكتسب مركزية مع الثورة التجارية وفي عصر النهضة. فقد ظهر مفكرون مثل هوبز وديكارت ونيوتن وإسبينوزا، والفلاسفة العقلانيون الماديون الآليون في القرن الثامن عشر أمثال لوك وكوندروسيه ولاميتري وهولباخ، الذين أدركوا العالم من خلال صورة مجازية آلية.

أما النموذج العضوي فيشغل مكاناً أكثر مركزية ويعود إلى أفلاطون (فايدروس) وأرسطو (كتاب الشعر) ولونجينوس. وقد بدأ هذا النموذج يكتسب أهمية منذ عصر النهضة فثمة ملامح قوية منه في فكر لايبنتز وإسبينوزا، ولكنه اكتسب مركزية في القرن التاسع عشر (مع تصاعد الفكر المعادي للاستنارة). وظهور النماذج العضوية قد يكون تعبيراً عن إحساس الإنسان بقصور العقل والحواس عن إدراك كلية الكون وتركيبية الإنسان التي لا تُرد إلى المادة. وهنا يتوارى العقل، ويظهر اللاوعي والشعور والعواطف لتقف كلُّها، جنباً إلى جنب مع الحس، وسيلةً للإدراك، وذلك في محاولة لوضع حدود لعمليات العقل النقدية، ولاسترجاع طريقة أخرى للإدراك الواقع تفهم اللون المحلي، وتحترم الخصوصية والتركيب، وتحاول أن تستعيد للعالم معناه ومركزه، وتضع أساساً جديداً لليقين (المعرفي والأخلاقي). ويلاحظ أن الصورة المجازية العضوية قد تعبّر عن ازدياد الحلولية الكمونية والعلمنة، وبالتالي ازدياد ذوبان الجزء (الإنساني) في الكل (الكوني الطبيعي/ المادي). ومع هذا يمكن القول بأن الفكر الغربي العقلاني الآلي قام بنزع القداسة عن كل شيء باسم العقل، فعادت الحركة الرومانسية بمفاهيمها العضوية وحاولت استعادة القداسة للكون.

وفكر كانط وشلنج وشليجل وهيغل وكوليردج وكروتشه وكل الفكر